

الكتاب الثاني

من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية

مسيرة النورمان الايطاليين - نهاب بوهوموند الى القسطنطينية. الامراء الصليبيون في القسطنطينية - قسم الولاة - زحفهم نحو نيقية. حصار نيقية والاستيلاء عليها.

٥ - وبعث الامبراطور في الوقت نفسه واحدا من رجاله المقربين الى مبعوثينا ، وكان هذا ممن يحتل مكانة سامية لديه ، ممن يدعونهم مواليه ، بعثه ليتولى ارشادنا الى السبل الامنة في جميع بلاده وحتى نصل الى القسطنطينية وكان يأمر - اثناء جوازنا ببلدانه - السكان بحمل الاقوات كما فعل الذين تحدثنا عنهم قبل ، وكان هؤلاء السكان قد استولى عليهم الخوف ، وكانوا يخشون من عساكر الامير بوهوموند الاشاوس ، حتى انهم لم يأذنوا لواحد منا باجتياز اسوار مدنهم ، وحدث ذات مرة ، ان اراد واحدا من رجالنا مهاجمة احد الامكنة الحصينة والاستيلاء عليه ، راغبا في حيازة ماكان فيه من نخائر كثيرة ، ورفض بوهوموند الحكيم طلبه وانكر عليه محاولة مغادرة مكانه الا بموافقته وذلك تمسكا بوعده الذي قطعه للامبراطور ، وقد غضب غضبا شديدا من تانكرد ، واشتد غضبه ايضا على بقية الآخرين (٢٣) ، وقد جرت هذه الواقعة ليلا ، وفي صباح اليوم التالي خر - سكان المدينة يطوفون بارجائها ، وهم يحملون الصلبان في ايديهم ، ومثلوا امام بوهوموند الذي رحب بهم ، وهش لهم ، ثم صرفهم بعدما طمأنهم على انفسهم وعلى بلدهم.

ووصلنا بعد ذلك الى بلدة تدعى سيرا (٢٤) حيث اقمنا معسكرنا ولقد وجدنا بها كمية وافرة من المؤن المناسبة لهذا الموسم ، وعقد بوهوموند هناك اتفاقية مع اثنين من كبار عمال الامبراطورية ، وقد دفعته رغبته في الحفاظ على سلامة الارض ومحبته لهما على اصداره الاوامر الى رجالنا للقيام باعادة جميع السائمة التي

انتهبوها ، وانتهى بنا المسير بعدئذ الى مدينة روسا (٢٥) ، فخرج
اهلها من الاغريق جميعا فرحبوا بنا ، ونصبنا بها خيامنا في يوم
الاربعاء - المقدس - السابق لعشاء الرب السري الاخير (٣٦) ،
وترك بوهموند جميع قواته هناك ، واصطحب معه شرذمة صغيرة
من الفرسان ، وعهد الى تانكرد بقيادة جند المسيح ، وعندما وجد
تانكرد الحجاج يقدمون على شراء الاطعمة ، تعهد بالابتعاد عن
الطريق العام ، وقيادة الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه المؤن
بوفرة ، وعلى هذا توغل في واد فيه كل شيء ضروري للعيش ، وقد
احتفلنا فيه احتفالا بهيجا بعيد القيامة .

٦ - وعندما عرف الامبراطور بان بوهموند العظيم المبجل في
طريقه اليه ، امر باستقباله بكل حفاوة ، وانزله في منزل فاخر واقع
خارج المدينة (٢٧) ، ولما نفض عنه غبار السفر واستجم قليلا ،
بعث الامبراطور اليه يسأله القنوم عليه للتفاوض معه على انفراد ،
ولقد اشترك في الاجتماع كل من غودفري واخيه (بلدوين) وكان
كونت صنجيل قد اقترب انذاك من المدينة ، وقلق الامبراطور من ذلك
وغضب غضبا شديدا ، واخذ يحيك مؤامرة تمكنه من تسخير
عساكر المسيح لصالحه ، سواء اكان عن طريق المكيدة أم
الخداع ، لكن العناية الربانية صرفت عنهم كل مكيدة ولم تمكنه لاهو
ولارجاله من ايقاع اذى اذى بهم ، وفي هذا الوقت الذي كان فيه
بوهيموند وغودفري مجتمعين بالامبراطور ، اجتمع في مكان آخر
جميع مقدمي البطارقة (النبلاء) الذين كانوا في القسطنطينية
، وخافوا أن يفقدوا مدينتهم ، فقاموا بتدبير بعض الخسوط
الخرقاء ، حيث خيل اليهم ان زعماء جيشنا والامراء سيقدمون على
اداء قسم الولاء للامبراطور ، لكن رجالنا رفضوا مطلب
الامبراطور وعروضه وقالوا : ان هذه امور مزرية بنا ، ولايجوز لنا
ان نقسم يمين الولاء فلربما غرر بنا زعمائنا ، وانذاك من الذي
يمكنه حسم هذه المسألة فقد يقولون عند ذاك : ان الضرورة الملحة
قد حملتنا على الخضوع والانصياع لمشيئة الامبراطور .

ووعد الامبراطور الامير بوهوموند الشجاع ، والذي كان يخشاه حيث انه فر من امامه أكثر من مرة ، وعده أن يقطعه أرضا وراء انطاكية ، تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا ، مقابل تقديم بوهوموند يمين الولاء له ، من غير تردد ، ووعده الامبراطور أنه لن يتخلى عن عهده اليه ، مادام متمسكا بولائه (٢٨) ، وغريب حقا كيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان الأشاوس هذا التصرف ؟ لاشك ان الحاجة الملحة ارغمتهم على القبول بتقديم قسم الولاء.

وتعهد الامبراطور من جهته لرجالنا بالوفاء بعهده ، وأنه سيضمن سلامتهم ، لابل قد أقسم أنه سيرافقنا شخصيا ومع جيشه واسطوله ، وأنه سيؤمّن جميع المؤن التي سنحتاجها برا وبحرا ، من غير تباطؤ ، وسيسعى الى تعويض جميع خسائرنا ، وتدارك كل ما سنحتاج اليه ، حتى لا يشعر أحد من الحجاج ، وهم في طريقهم نحو القبر بشيء من الخوف أو الملل ، وكان الكونت صنجيل مقيما في هذا الوقت في إحدى المقاطعات ، وبقي جيشه معسكرا في الخلف ، وبعث اليه الامبراطور يطلب منه أن يقسم يمين الولاء له كما فعل غيره من الأمراء ، ورفض صنجيل وشرع يخطط ساعتئذ للانتقام من الجيش الامبراطوري لكن الامير غودفري وروبرت كونت فلاندر مع بقية البارونات عذلوه وأخبروه أنه ليس من العدل أن يشهر سيفه في وجه الامبراطور ولحاربة المسيحيين ، وزاد بوهوموند العاقل على ذلك أنه اذا أقدم (كونت تولوز) على ارتكاب أي عدوان ضد الامبراطور ، وخالف ما تعهد به بقية الأمراء ، فإنه - اي بوهوموند - سيقف بنفسه ضده والى جانب الامبراطور ولدى سماع صنجيل هذا مضى للتشاور مع رجاله ، ثم عاد فأقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، وتعهد بالحفاظ على حياة الامبراطور واحترام ارادته ، وتشريف مكانته ، وعدم تعريضه للاساءة أو المهانة من قبله أو من قبل واحد من رجاله ، ومع هذا يلاحظ أنه عندما وجهت الدعوة اليه لحضور الحفل العام الذي أقامه

الامبراطور احتفاء بما تعهد به الأمراء ، رفض الدعوة وأصر على رفضه وأعلن أنه لن يستجيب حتى لو قاده رفضه الى موته وتلف نفسه ، وفي الوقت الذي كان هذا كله يحدث في العاصمة اقترب جيش بوهموند منها .

٧ - وحتى يتجنب كل من تانكرد ورتشارد السالرنى أداء قسم الولاء للامبراطور تسلا هارابين وعبرا البوسفور خفية ، واصطحبا معهما الجزء الأكبر من عساكر بوهموند ، ولم يلبث جيش الكونت صنجيل أن وصل الى القسطنطينية ، حيث أقام هو ورجاله بعض الوقت ، وبقي بوهموند في صحبة الامبراطور للتشاور معه حول الوسائل الجدية التي ينبغي اتخاذها لتسهيل عبور القوات الموجودة وراء نيقية ، بينما مضى الأمير غودفري الى نيقوميديا وبرفقته تانكرد وبقيّة الأمراء ، ولبث الجميع هناك ثلاثة أيام .

ولما وجد الأمير (غودفري) أنه ليس هناك طريق يمكن المسير عليه وقيادة هذه الأعداد نحو نيقية ، فالطريق الذي سبق أن عبره الصليبيون الأوائل لا يتحمل حشودا كثيفة مثل هذه الحشود ، أقول لما وجد غودفري الحال على هذه الصورة ، قدم أمامه سرية فيها ثلاثة آلاف رجل وسلاحها بالفؤوس والسيوف ، وأمرها أن تتقدم أمام الجيوش وأن تقوم بتمهيد الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من عبوره الى نيقية ، وبالفعل تمكن هؤلاء الرجال من شق طريق مناسب عبر شعاب احد الجبال العالية ، وقاموا أثناء عملهم بصنع كمية من الصلبان من الخشب والحديد ، ونصبوها على شكل صوى لتكون وسيلة ارشاد لحجاجنا ، وهكذا وصلنا الى أحواز مدينة نيقية حاضرة بلاد أسية كلها ، وكان يوم وصولنا هو السادس من أيار ، و هنا أقمنا معسكرنا .

ومضينا قبل وصول الأمير بوهموند نلتمس الخبز ، فلم نجد الا القليل منه ، حتى أن الرغبة الواحد كان يباع بعشرين أو ثلاثين دينارى ، ولما وصل بوهموند الحكيم جلب معه عن طريق البحر مؤنا

كثيرة ، وتوالى بعد هذا وصول الامدادات عبر الياپسبة
والماء ، فعمت الفرحة العظمى بين صفوف عساكر المسيح .

٨ - وشرعنا يوم صعود الرب (٢٩) في مهاجمة المدينة من جميع
اطرافها ، وقمنا بصنع عدد من الأبراج الخشبية زودنا بعضها
بأكباش أردنا أن نهدم بها أبراج الأسوار ، وبعد مضي يومين
استطعنا أن نقرب من أسوار المدينة بكل شجاعة واندفاع ، فهدمنا
أسوارها وبككنا أبراجها ، وقام التركمان المدافعون عن المدينة
بإرسال رسالة استغاثة ، وعندما وصلت النجدات بعثوا اليها
يقولون : اقبلوا غير هيابين ، واقربوا غير وجلين ، وانخلوا من
الباب الجنوبي لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية من يعترض سبيلكم
أو يقف في طريقكم .

وفي اليوم نفسه - اي يوم السبت التالي ليوم صعود الرب تمكن
الكونت صنجيل وأسقف بوي من احتلال تلك الجهة
الجنوبية ، وخرج هذا الكونت ، الذي جاء من بلاد غير
بلادنا ، خرج ترعاه العناية الربانية ، وهو يزهد بأسلحته
الدنيوية ، فانقض بجيشه على التركمان الذين كانوا يزحفون
نحونا ، وحيث أنه كان مسلحا بشارة الصليب من جميع
الجوانب ، فقد استبسل في هجومه عليهم وقاتلهم بشدة
مقنامية ، فالحق بهم الهزيمة وانتصر عليهم ، فلانوا بالفرار بعدما
خلفوا وراءهم أعدادا كبيرة من القتلى ، وكانت جماعة أخرى من
التركمان قد أقبلت تريد نجدة من سبقها ، أقبلت ونفوس رجالها
تفيض سرورا وأملا بالنصر المحقق ، وأحضروا معهم الحبال
ليربطوا بها رجالنا ، ويأخذونهم معهم مصفدين بالأغلال الى
خراسان ، وكانوا في حالة من النشوة والطرب ، وأخذوا ينحدرون
فئة تلو أخرى من قمة مرتفع ، وكانوا كلما وصلوا الى السهل
ليستقروا هناك ضربت أعناقهم بأيدي رجالنا ، الذين أخذوا
يضعون رؤوس هؤلاء القتلى في العرادات ويقذفون بها الى داخل
المدينة بغية نشر الرعب بين صفوف سكانها التركمان .

وتبادل بعد هذا كونت صنجيل وأسقف بوي الرأي واتفقا حول الوسائل التي تمكنهما من هدم أحد الأبراج ، وكان قائما أمام معسكريهما ، وقد عمدا الى ارسال عدد من الرجال لحفر نفق تحته بغية تعليقه ، ومضى هؤلاء بحماية جماعة من حاملي الأقواس والنشاب ، وجرت عملية الحفر بنجاح ، وتم وضع كمية من الأخشاب تحت أساسات البرج ، ثم أضمرت فيها النيران ، ومع حلول الظلام إنهار البرج ، غير أن القتال توقف بسبب الظلام ، فانتهاز التركمان الفرصة وخرجوا في الليل الدامس فرموا ماتشعث من الأسوار حتى عادت أقوى مما كانت عليه ، وفي الصباح رأى رجالنا ذلك وأبركوا أنه بات من المحال انزال الأذى بالعنو من تلك الجهة .

وتلاحق وصول العساكر ، فوصل روبرت (كونت هيويز) النورمندي ، والكونت ايتين (٣٠) . وغيرهما كثير ، ثم وصل روجر دي بانفيل ، وقام بوهوموند بمهمة حصار المدينة من الجهة الامامية ، ووقف الى جانبه تانكرد ، ثم التحق به الامير غويفري وكونت فلاندر يعاونه روبرت بوق نورمندي ثم الكونت صنجلي ومعه أسقف بوي ، واشتد الحصار الذي ضرب على نيقية من جهة البر شدة كبيرة ، ولم يعد بإمكان أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، ووقف الجميع في هذه الساعة وقفة رجل واحد ، لكن من الذي يمكنه احصاء تعداد جيش المسيح !؟

ويخيل لي أنه لم يتأت لأحد ، ولن يتأتى لانسان أن يشاهد مثل هذا العدد الهائل من الفرسان ، وهم في غاية التأهب والاستعداد (٣١) .

لكن كانت هناك بحيرة كبيرة واقعة في الجهة المقابلة لنيقية ، فيها قوارب للتركمان ، الذين ملكوا حرية الخروج من مدينتهم لجلب الأعلاف والأخشاب وغير ذلك من أنواع العتاد ، وتشاور قانتنا حول هذا الأمر ، وقر قرارهم على ارسال مبعوثين عنهم الى

القسطنطينية يطلبون من الامبراطور انقاذ عدد من السفن الى شفتوت حيث وجد فيها ميناء ، كما طلبوا منهم أن يوعز بجمع ما أمكن جمعه من الثيران ، وسوقها عبر الجبال والأحراش الى أحواز البحيرة ، وسرعان ماتم تنفيذ ذلك ، وبعث الامبراطور في الوقت نفسه مرتزقة ، وجلبت القوارب ، ولم ير القوم انزالها الى الماء في وضع النهار ، لكن عندما حل الظلام انزلوها الى البحيرة ، واعتلاها المرتزقة وهم في كل اسلحتهم ، ومع بزوغ الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهي تجدف وسط البحيرة في أحسن نظام ، ميممة شطر المدينة ، وماكاد التركمان يرون هذا المشهد ، حتى تملكتهم الدهشة واحتاروا في أمرهم ، وتساءلوا : أتراها لقومهم أم أنها لعساكر الامبراطور ؟ وسرعان ما عرفوا أنها نجدة من الامبراطور ، فاستولى عليهم الرعب ، وهلعوا ، واجهشوا في البكاء والنحيب بينما كان الفرنجة يطيطون فرحا ، ويمجدون الرب .

ولما ايقن التركمان في النهاية ، انهم لن يستطيعوا تلقي اية نجدة من جيوشهم ، ارسلوا سفارة الى الامبراطور ، تخبره باستعدادهم لتسليم البلد له ، اذا سمح لهم بالخروج مع نسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، وسر الامبراطور وابتهج ، ودفعته سوء طويته الى القبول والايعاز باخراجهم آمنين ، وارسالهم سالمين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول امام جلالته ، وعاملهم باللطف واللين ليكونوا على استعداد للتعاون مع ونصب كمائن للفرنجة ، واقامة العقبات في طريقهم (٣٢) .

واستمر حصار نيقية سبعة اسابيع وثلاثة ايام ، واستشهد فيه العديد من رجالنا ، وعرجت ارواحهم الطاهرة الى الرب مغتبطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سبيل تمجيد اسم الرب ، وصعدت نفوسهم منتصرة الى السماء مجللة باثواب الشهادة البيضاء ، وهي تهتف جميعا بصوت واحد: « حتى متى ايها السيد

- ٢٥١٢ -

القدوس الحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الارض ،
انت يا من تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد ، آمين» (٣٣) .

obeyikandl.com

زحف الصليبين نحو أسية الصغرى

معركة دوريلديوم (٣٤) (اول شهر تموز ١٠٩٧)

٩ - وسار التركمان ، بعد سقوط نيقية ، الى القسطنطينية للقاء الامبراطور ، الذي ازداد سرورا بكل ما حدث ، فأقدم على توزيع الكثير من الهبات على فقرائنا .

ووصلنا في اليوم التالي لمغادرتنا نيقية الى جسر (٣٥) ، خيمنا للاستراحة على مقربة منه لمدة يومين ، واستيقظ رجالنا مع بزوغ فجر اليوم الثالث ، وكان سكون الليل ما زال مخيما ، ولما لم يستطيعوا ركوب الطريق نفسه معا ، انقسموا إلى فريقين ، سار كل منهما على طريق ، وكانت المسافة بينهما حوالي اليومين ، وسافر مع الفريق الأول كل من بوهموند ، وروبرت دوق نورمنديا وتانكرد العاقل وسواهم كثير .

وانقض التركمان في اليوم الثالث انقضاضا عنيفا على بوهموند وصحبه ، وشرع الأعداء يصرون على أسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بألسنتهم عبارة شيطانية لا اعرفها (٣٦) ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا العدد الهائل من التركمان مندفعين بكل شدة وهم يزمجرون بصوت مرتفع كمن به مس من الشيطان ، امر بعض الفرسان بالترجل من على مطاياهم ، والاسراع في نصب خيمته ، وقبل أن يتم نصبها أعاد قوله : على جميع الفرسان ، عليكم ايها المبجلون يا فرسان المسيح الشجعان ، التميز عن الرجالة في الذهاب قدما نحو اليمين ، وليبادر الرجالة إلى إقامة المعسكر وليكن رائدهم العقل ، فنحن نواجه يوما عصيبا والعدو محقق بنا من كل الأطراف .

وما أن أنجز هذا كله حتى احاط بنا التركمان من كل جانب ، وأخذوا في محاربتنا برميينا بالحرايب ورشقنا بالنشاب من مسافة

بعيدة وبشكل مدهش ، فأجمعنا على الخروج بغية صدهم على الرغم من عجزنا عن مقاومتهم وعدم قدرتنا على احتمال وطأة هجوم هذا الحشد الكبير من الأعداء ، وقدم الذسوة لنا في ذلك اليوم مساعدات كبرى مشكورة ، إذ قمن بحمل الماء إلى رجالنا ليطفئوا بها ظمأهم ، ولم يتوقفن عن تحميسهن وحثهن على مثابرة القتال والمدافعة ، وسارع بوهمود الحكيم إلى إعلام الآخرين ، وأعني بهم الأمير غودفري ، والكونت صنجيل وهيوج الكبير ، وأسقف بوي وبقية فرسان المسيح ، وطلب منهم المبادرة دون توقف للسير نحو المعركة مخاطباً إياهم بقوله : « من أراد منكم أن يسهم اليوم بنصيب في الحرب فليقدم شاهراً سيفه غير متردد ، واستجابوا لندائه ، وكان غودفري المعروف بشدة اقدمه وشجاعته ، وهيوج الكبير أول الواصلين على رأس قواتهما ، ولم يلبث أن وصل أسقف بوي ومعه عساكره ثم تلاه كونت صنجيل في جيش كثيف التعداد .

واستبدت الدهشة برجالنا وراحوا يتساءلون: عجا من اين يمكن لمثل هذا العدد الهائل من التركمان والعرب والمشاركة وسواهم أن جاء ، ذلك أن هذا الجندس الأثم ، والمحروم من رحمة الرب قد غطى بحشوده الكثيفة وجه الأرض في الجبال والتلال والسهول والوديان ، في داخل المدينة وخارجها ، وجرت بين صفوفنا مشاورات عاطفية ، قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الرأي : « اعملوا كل ما في وسعكم ، وابذلوا كل جهد ، واعتمدوا كل وسيلة للاتحاد في سبيل نصره دين المسيح ، والدفاع عن الصليب المقدس ، ذلك أنكم إذا أرضيتم الرب هذا اليوم انقلبتم أغنياء موفوري الثراء .

ولم يلبث شمل رجالنا أن التأم ، وعبئت الصفوف ، وكان على المجنبة اليسرى كل من بوهمود الحكيم ، وروبرت النورمندي ، وتانكرد الفطن ، وروبرت دي انزا ، ورتشارد السالرنبي ، وزحف أسقف بوي من وراء مرتفع لتطويق التركمان الكفرة ، وكان معهم على المجنبة اليسرى ريموند كونت صنجيل ، وهو الفارس الذائع الصيت ، وكان الأمير غودفري على المجنبة اليمنى ، ومعه الفارس

المقدام كونت فلاندر ، وهيوج العظيم ، وآخرون كثير ممن لا أعرف
اسمائهم .

ولدى اقتراب فرساننا بادر التركمان والعرب والمشاركة والغلمان
وجميع شعوب البرابرة ، إلى الفرار لا يلوون على شيء من منافذ
الجبال ومسالك السهول ، وكان عدد التركمان والفرس والرعاع
والمشاركة والغلمان وسواهم من الوثنيين يبلغ ستين الفا وثلاثمائة
الف مقاتل ، هذا عدا عن العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ،
وهربوا نحو خيامهم بكل سرعة ، بيد أنهم لم يتمكنوا من المكوث بها
طويلا ، واضطروا إلى متابعة الفرار ونحن نلاحقهم ونجري في
آثارهم نقتل فيهم سحابة يوم كامل ، وقد استولينا على غنائم
عظيمة من الذهب والفضة والخيول والجمال والحمير والسناومة
والأبقار ، وأشياء لا تحصى غير هذه مما لا أعرفها ، وما كان لواحد
من رجالنا أن ينجو في هذا اليوم لولا وجود الرب معنا على سواح
المعركة ، ولولا أنه تداركنا بإرسال الجيش الأخر بالسرعة
القصوى ، وقد استمر القتال دونما توقف من الساعة الثالثة حتى
التاسعة ، ولم يرض الرب المتعالي الرحيم أن يهلك فرسانه ، أو أن
يقعوا في قبضة الأعداء ، فلعث لنا بهذه النجدة (٣٧) على جناح
السرعة ، وقد قتل في هذا اليوم اثنان من فرساننا النبلاء وهما:
غودفري دي مونت سكابوزر ووليم ابن المركيز اخو تانكرد ، كما
لقي غيرهم من الفرسان والرجال الذين لا أعرفهم مصرعهم أيضا .

من هو الرجل البصير العاقل الذي يجرؤ على وصف براعة
التركمان ومواهبهم الحربية ومقدار شجاعتهم ؟ كان قد خيل إليهم
أنهم سيدخلون الرعب إلى قلوب أمة الفرنجة عن طريق تهديدهم
إياهم بنشابهم كما سبق وفعلوا بالعرب والمشاركة والأرمن
والسوريين والأغريق ، لكن إذا قضى الرب الا يتغلبوا على رجالنا
فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان حقا ما قيل من أنه لا
يجوز لأحد أن يدعي الفروسية إذا لم يكن من بين الفرنجة أو
التركمان ، وسأقول أنا بدوري الحقيقة ، ولن يستطيع أحد

مناقضتي : لو ان التركمان امنوا إيماننا مطلقا باليسوع واتبعوا دين
المسيحية المقدسة ، وتأتى لهم ان يعترفوا بآله واحد في ثلاثة
اقانيم ، هي : ابن الله المولود من العذراء ، الذي عانى ثم قام من
بين الأموات ، وصعد إلى السماء أمام أعين حواربييه ، وأرسل
التعزية الكاملة بالروح القدس ، وقيض إليهم ان يؤمنوا أيضا إيماننا
صافيا حقيقيا بأن له الحكم في السماء والأرض ، لما وجدنا انسانا
يمكن ان يعادلهم في القوة والشجاعة والبراعة في القتال (٢٨) .

لقد شاعت إرادة الرب ان يواجهوا الهزيمة على أيدي رجالنا ،
وكانت هذه المعركة يوم اول تموز .

الكتاب الرابع

الزحف الصليبي نحو انطاكية

عبور الصليبيين اسية الصغرى - نهاب كل من بلدين
وتانكرد الى طرسوس

جواز ارمينية الصغرى واقليم كبدوكية - وصولهم الى
ابواب انطاكية

١- بعد ايقاع الهزيمة الساحقة بالتركمان اعداء الرب والمسيحية المقدسة ، وفرارهم لمدة اربعة ايام واربع ليال متوالية سويا ، وصل الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الكبير قد انهزم نحو نيقية ، حيث صادفه عشرة الاف عربي فقالوا له : « ايها التعس ، يا اشقى الناس طرا ، ما الذي حملك على الفرار » ؟ فاجابهم سليمان بقوله : عندما انهزم الفرنجة من قبل ، كنت احسب انني ساخذهم اسرى مقرونيين بالأصفاد ولما اردت ربطهم جماعة تلو اخرى ، ابصرت من ورائهم حشود كثيفة لا تعد ولا تحصى ، ولو اتيج لكم او لغيركم الحضور لشهدتم حشودهم تغطي وجه الارض والجبال والسهول والتلال والوديان ، فنحن لم نكد ان نراهم حتى استولى علينا الفزع ، واستبد بنا الهلع ، ولم نعد ندرى ما نفعل ، فقد سرنا حتى كدنا ان نقع في ايديهم ، والآن اذا كنتم تثقون بما اقول ، ارحلوا من هنا لتوكم ، اذ لو عرفوا خبر قدومكم ، لما نجا احد منكم ، فلما سمعوا مقاتته هذه ولوا الأدبار ، وتفرقوا ايدي سبأ ، وانسابوا في جنبات اسيا الصغرى .

اما نحن فلم نتوقف من جانبنا عن ملاحقة اولئك التركمان الطغاة ، الذين كانوا يلونون بالفرار من امامنا يوميا ، وكانوا كلما مروا ببلد او موقع حصين كذبوا على اهله وخدعوهم قائلين : « لقد هزمنا المسيحيين جميعا وكان نصرنا عليهم مؤزرا ، الى حد انه لن يجرؤ بعد اليوم احد منهم على الوقوف امامنا ، لهذا دعونا ندخل

عليكم ، ، لكنهم كانوا ما يكادون يدخلون البلد حتى يعملوا يد
السلب والنهب في جميع البيوت والكنائس وفي كل ما اعترض
سبيلهم ، وكانوا يستولون على الخيول والحمير والبغال وجميع
الذهب والفضة وعلى كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم كانوا ينطلقون
ومعهم أبناء النصارى ، لكن بعد أعمالهم الحرق والتهديم في كل ما
عجزوا عن حمله والانتفاع منه ، كانوا يفعلون هذا كله وهم
يفرون من أمامنا ويخشون لقاءنا ، ولقد طاردناهم عبر الصحارى
والفيافي الخالية من الماء والحياة ، فأحاق بنا الخطر ، وكدنا الا
نخرج أحياء ، وعانينا من الجوع وشدة الظما ، ولم نجد ما نسد به
الرمق غير الشوك الذي كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فهذا هو الطعام
الذي عشنا عليه ونحن في أشد حالات السغب ، وقد نفقت معظم
خيولنا ، واضطر كثير من فرساننا إلى الترجل ، ولقد الجأنا للنقص
في المطايا إلى استخدام الثيران بدلا من خيول القتال ، واستعملنا
ونحن في وسط العوز الماعز والخراف وحتى الكلاب لحمل امتعتنا .

ووصلنا بعد ذلك إلى منطقة شديدة الخصب ، تفيض بالمأكولات
والأطياب ، وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من مدينة قونية ،
حيث نصحنا أهلها أن نحمل معنا كميات زائدة من المياه ، لأننا
سنفتقده طوال يوم كامل من مسيرتنا ، ووصلنا بعد ذلك إلى نهر
أقمنا إلى جواره مدة يومين ، واستمر أعداؤنا في التقدم أمامنا حتى
أفضى بهم المسير إلى مدينة هرقلية ، حيث وجد هناك فريق كبير من
التركمان يعد العدة للتصدي لجند المسيح ويبحث عن أجدى الوسائل
التي تؤذيه ، وما كاد جند الرب يرون هؤلاء التركمان حتى انقضوا
كالأسود عليهم ، وحملوا عليهم حملات شديدة ، فأسرع أعداؤنا إلى
تولية الأدبار ومضوا فارين كسهم شديد انطلق من قوسه ، وسرعان
ما اقتحم رجالنا المدينة ، حيث لبثنا فيها مدة أربعة أيام .

وهناك تميز تانكرد بن المركيز عن الآخرين وانفصل عنهم ، وحذا
حذوه الكونت بلدوين أخو الأمير غودفري ، ودخلا معا وادي
بوترنلوت ، ولم يلبث تانكرد أن مضى وحده وانطلق على رأس

فرسانه حتى وصل إلى طرسوس ، فخرج التركمان في جماعة واحدة ، واصطفوا لقتال المسيحيين ودفعهم ، إنما عندما دنا رجالنا منهم لحربهم ، لانوا بالهرب ، وانصرفوا نحو المدينة مسرعين ، فثنى تانكرد فارس المسيح عنانه ، وضرب مخيمه أمام باب المدينة .
ووصل بعد قليل ، من جانب آخر الكونت بلدوين مع جيشه وسأل تانكرد أن يقاسمه المدينة ، فأجابه : إنني أرفض كل شراكة معك ، ولما حل الظلام فر جميع التركمان مذعورين ، وعندئذ تسربل سكان المدينة وخرجوا يهتفون : « اقبلوا أيها الفرنجة المنتصرون ، اقبلوا فإن التركمان ارتعشوا خوفا وفروا جميعا في أن واحد » .

ومع اشراقة الصباح جاء أعيان المدينة إلى معسكر الفرنجة وسلموا المدينة عن طواعية وخاطبوا المتنازعين حول تملكها بقولهم : اقصروا أيها السادة ، فنحن نرغب إليكم ونرجوكم تولية هذا [تانكرد] علينا ، فهو الذي استبسل بالأمس في قتال التركمان ، لكن الكونت بلدوين المحبوب اعترض وحاجج تانكرد بقوله : « لدخل المدينة معا ، ولننتول نهبها ، وليتول أمرها بعد ذلك من يصب منا النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطيع حربها » فعاود تانكرد الشجاع الرد بقوله : « ما أمقت هذا المسلك إلى نفسي ، وما أبعدني عنه ، إنني لا أريد أن أسلب المسيحيين ، ولقد اختارني أعيان هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواي أميرا » لكن هذا الأمير الشجاع لم يجد في نفسه الرغبة في متابعة الخصام مع الكونت بلدوين الذي كان يقود جيشا كبيرا ، وتخلي عن المدينة طواعية أو مرغما ، وانسحب بكل شجاعة ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هما : أذنة والمصيصة ، كما دان له العديد من الحصون .

١١ - ومع هذا كله ، فقد تابع الجيش العظيم تقدمه ، وفيه ريموند الصنجيلي ، وبوهموند البار ، والأمير غودفري ، وسواهم كثير ، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دماء التركمان ، وعطش إلى الارتواء منها ، وقادهم زحفهم إلى حصن شديد المناعة ، وقفوا

امامه عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه سيمون من أهل
البلد (٣٩) ، فسألهم ان يعهدوا اليه بأمور الدفاع عن تلك البقعة من
الأرض ضد محاولات اعدائه من التركمان ، فمنحه الفرنجة اياها
فأقام بها مع ابناء جنسه.

ثم غادرنا تلك المنطقة ، ووصلنا ونحن في أنعم بال إلى قيصرية من
أعمال كبدوكية ، ثم توجهنا إلى مدينة فخمة رائعة الجمال ، كثيرة
الثروات (٤٠) ، كان التركمان قد اقاموا على حصارها ثلاثة اسابيع
قبل قدومنا ، غير انهم عجزوا عن اخذها ، في حين انه ماكننا نصل
حتى القت بأيديها اليها عن طواعية وبكل سرور ، وتقدم واحد من
الفرسان واسمه بطرس دي البيوس (٤١) ، وسأل جميع المقدمين
اقتطاعه اياها ليدافع عنها بكل ما أوتيته من طاقة في سبيل الرب
والقبر المقدس ، والساسة النبلاء والامبراطور ، فأجمعوا على اجابة
مطلبه ، ورضوا باقتطاعه اياها.

وعلم بوهوموند في الليلة التالية ان التركمان الذين كانوا يحاصرون
هذه المدينة ، قد انتشروا في جوانب المنطقة ، فسارع على رأس
فرسانه وحدهم دون غيرهم لمطاردتهم حيث كانوا ، لكن لم يتهيأ له
اللقاء بهم .

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة اسمها كوكسون ، وكانت المؤن التي
نحن بأمر الحاجة إليها ، متوفرة فيها بكميات وافية ، وسرعان ما
استسلم لنا مسيحيوها وادخلونا إليها ، فمكثنا فيها ثلاثة ايام في
أرغد عيش ، فاستجم رجالنا واستردوا عافيتهم تماما .

ونما إلى مسمع الكونت ريموند [الصنجيلي] بأن التركمان
المتولين لشؤون الدفاع عن انطاكية قد غادروها ، فأطبق تدبيره هو
ومشاوروه على المسارعة في إرسال بعض فرسانه للاستيلاء عليها
قبل فوات الوقت ، واقدم على اختيار كل من الفيكونت بطرس
القشتالي ووليم دي مونبليه ، وبطرس دي روبيه ، وبطرس ريموند
دوتبول ، وعهد إليهم بتنفيذ هذه المهمة ، و أنفذ برفقتهم خمسمائة

فارس ، فساروا جميعا في واد يقع في أحواز انطاكية ، حتى بلغوا من حصون البوبليكان ، وهناك علموا بأن المدينة لازالت بأيدي التركمان ، وأن هؤلاء على استعداد للدفاع عنها بكل اصرار ، وتميز بطرس دي روبيه بمن معه ، حتى كان مساء اليوم التالي ، تجاوز انطاكية ودخل منطقة منخفض الروج ، فصادف به فريقا من التركمان والمسلمين فناجزهم القتال ، وأوقع بفئة كبيرة منهم ، ثم تعقب الباقيين بعنف ، وما كاد الأرمن النازلون في هذه المنطقة يرون عظم الهزيمة التي الحقها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له الروج ، كما استسلم له العديد من الحصون الأخرى .

أما نحن الذين بقينا في كوكسون فقد غادرناها ، وتوغلنا في داخل جبل مرعب ، تلامس نراه قبة السماء ، هذا إلى ضيق مسالكة ضيقا شديدا ، وسرنا في الطريق المجاور له ، ولم يتمكن واحد منا مزاحمة آخر في التقدم ، وكانت الخيول تسقط في الأودية ، وكان كل فرس حموله يجر فرسا آخر مقطورا وراءه .

وظهرت آثار الحزن واليأس على وجوه الفرسان جميعا ، وأخذوا يلطمون وجوههم ويضربون كفا بكف حزنا ورعبا ، وراحوا يتسائلون : ماذا يمكنهم أن يصنعوا بأنفسهم وأسلحتهم ، فمضوا يبيعون خيولهم وترسنتهم وخوذهم لقاء مبلغ تراوح بين ثلاث وخمس دينار ، أو بأثمان زهيدة جدا ، والذين عجزوا عن بيعها قاموا بطرحها عن كواهلهم بلا مقابل ، وتابعوا طريقهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون ، وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم مرعش ، فحذف أهلها إلى استقبالنا وهم في غاية الفرح والترحيب ، وحملوا إلينا المؤن والأعلاف بشكل كبير ، فغدونا بأرغد عيش ، وأقمنا بها ننتظر وصول الأمير بوهوموند .

ووصل فرساننا أخيرا إلى الوادي الذي تقوم فيه انطاكية المدينة الملكية ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي منحها الرب عيسى المسيح

- ٢٥٢٢ - ١

إلى بطرس سيد الحواريين ، ليعيدها إلى عبادة الدين المقدس ،
وهو الذي ذهب ، وحكم مع الله الأب في عالم روح القدس . له المجد
السرمدى . أمين .